

بدء الصيدلة

عرف الإنسان الصيدلة منذ العصور الأولى للتاريخ . فعندما شعر الإنسان الأول بالآلام والأمراض حاول أن يعثر فيما حوله من ماء ونباتات عن علاج لتلك الأوجاع وكان الماء دون شك أول عقار استعمله لإطفاء ظمئه وتخفيف آلامه . ثم بدأ يجرب النباتات والمعادن فوجد من بينها ما كان علاجاً سحرياً لأمراضه فاحتفظ به ووصفه لأهله الأقربين والبعض الآخر كان ساماً وأضرّ به فابتعد عنه . وبذلك كان الإنسان الأول هو الطبيب والصيدلى والمريض في نفس الوقت .

كان العلاج في العصور الأولى للتاريخ خليطاً من الكشوف التي وقع عليها الإنسان بغيريته الفطرية كما كان نتيجة للتجارب والمحاولات التي يصيب بعضها ويخطئ البعض الآخر .

فالكلب إذا عضته حشرة جرى نحو الطين وغطى موضع الألم به . ورأى الإنسان أنه إذا قلد الكلب في علاجه الذي أملمته الغريزة فسوف يجد علاجاً مماثلاً . والجحاموس تنزل إلى الماء ليس فقط هرباً من حرارة الشمس بل للتخلص أيضاً من الحشرات التي تعلق بجسمها . وحيوانات أخرى تغطيه بطبقة من الطين أو تنظفه بلسانها لوقايتها كما تفعل القطط . وربما كانت مراقبة الإنسان الأول للطبيعة وما فيها من حيوان وطيور وكيف تغالج نفسها من الأمراض بعض الطرق التي استعملها فيما بعد . ويلاحظ أحياناً ميلاً خاصاً لتناول نوع من الغذاء أو الشراب فيستنتج أن الطبيعة هي التي تقود خطانا . فالحامل ترى أحياناً دون وعى منها تأكل من الطبقات الجيرية التي تغطي جدران المنازل لافتقار جسمها إلى المواد الجيرية .

ويعرف الأطباء مرضى كثيرين يتناولون قدهاً من القهوة لتنشيط الدورة الدموية أو المواد الحريفة أو الحمضية تدفعه الغريزة إلى تناولها لميس حاجته إليها دون شعور منه .

ويرجح أن تكون المرأة وهي التي تعنى بصحة زوجها وأولادها قامت بتمريضهم وتنظيم غذائهم فتمنع عنهم بعض الأطعمة وتقدم لهم أغذية خاصة أخرى وهي لهم أسباب الراحة والتدفئة والتدليك أو بتناول مزيج من الأعشاب المغلية تجمعها من الغابة وقد اكتسبت بالتجربة خبرة للتعرف على كل نبات وخصائصه العلاجية والتميز بين السام منها وغير السام .

تفيد أحياناً هذه الطرق فيشفي المريض، وكان هذا هو الطب الواقعي كوضع الأعشاب أو اللبخات أو الطين موضع الألم والمكمدات الباردة أو الدافئة والحقن الشرجية والدهانات للحروق والجروح . ويحدث أحياناً أن جميع المحاولات لشفاء المريض تبوء بالفشل ويموت المريض بمرض غريب . فاعتقد الإنسان البدائي أن الموت قبل الشيخوخة يمثل هذه العلة ظاهرة غير طبيعية لا بد أنها جاءت عن طريق قوى غامضة لا يستطيع إدراكها أو التحكم فيها . . ربما كانت الأرواح الشريرة التي لا يستطيع محاربتها وحده . بل عليه أن يبحث عن وسيلة يحمي بها نفسه . هذا العدو الذي لا يراه ولكن شبحة يخيفه ويهدده في كل لحظة من حياته دون أن يستطيع الصمود أمامه أو محاربتة والتغلب عليه ؛ هذا العدو هو الأرواح الشريرة التي تتعقب كل خطوة من خطواته وفي طعامه والماء الذي يشربه والهواء الذي يستنشقه وأثناء نموه . فإذا انتابه مغص حاد أو صداع في رأسه أو آلام في جسمه أو أصيب بالعمى أو انهارت قواه فلم يعد يستطيع الوقوف على قدميه والخروج إلى الغابة لجمع غذائه من الحيوانات والثمار فلا بد أن يكون مرضه عن طريق هذه الأرواح أو الشياطين

أو إنسان يريد له الأذى .

وأخذ يبحث عن تلك القوة التي تستطيع أن تتغلب على تلك القوى غير المنظورة . ووجد في السحر ضالته . بل إنه هو الذي خلق ذلك الساحر عندما وضع فيه ثقته بأن لديه من القوى ما يمكنه من محاربة تلك القوى الخفية أو التوسل لدى إله قادر بأن يرفع عنه غضبه ويمنحه الشفاء .

وهكذا بدأت العقيدة في السحر منذ العصور الأولى للتاريخ وما زالت آثارها باقية حتى اليوم في كل أنحاء العالم ليس فقط في آسيا وإفريقيا بل في أوروبا وأمريكا . وتعجب عندما تعلم أن أمراضاً كثيرة كان يشفيها هؤلاء السحرة بالرغم من عدم فهمهم للأمراض . إن نظرية الجراثيم والفيروسات التي بدأت كشفها العلمية منذ باستور وكوخ في القرنين التاسع عشر والعشرين كانوا يجهلون في الماضي ولكنهم كانوا يحسون بوجود شيء غير منظور يسبب الأمراض والأوبئة عبروا عنه بالشياطين والأرواح الشريرة .

وكانت عقاقيدهم التي وصلوا إليها خلال تجارب الأجيال المتعاقبة إلى جانب العلاج النفسي الذي يحتمل في المدنية الحاضرة مركزاً ذا خطورة هما أساس العلاج الناجح الذي كانوا يستعملون له الرقي والتأمم والتعاويد السحرية تخفف من آلام المريض وتسجج في بعض الأحيان من شفائه والتغلب على المرض .

استفاد الطب كثيراً من تجارب هؤلاء السحرة الأوائل ومن محاولاتهم وإخفاقهم أحياناً ونجاحهم في أحيان أخرى في الكشف عن نباتات تساعد في إحداث الشفاء وإن كانوا يعملون على إخفاء ذلك ويتظاهرون بأنه نتيجة للسحر وقوى خارقة للطبيعة . وكان هذا الطب السحري هو بداية الطريق لثراث من العقاقير الطبية والنباتات التي ازدادت بمرور

آلاف الأعوام . وما زال بعض منها يستعمل حتى اليوم في الطب الشعبي ومنها عقاقير ثبتت فوائدها وصارت جزءاً من اللدساتير الطبية في العالم . وأصبح الساحر أهم رجل في القرية يهرعون إليه ويطلبون منه النجدة .

ولم يكن من اليسير لأي إنسان أن يتخذ السحر مهنة له ، وهو بمقام الطبيب والصيدلي في زماننا والساحر الطبيب والكاهن في عصور الفراعنة وأهل آشور وبابل والهنود والصينيين والإغريق وغيرهم . بل كانت هناك شروط يجب توافرها فيمن يريد أن يصبح الطبيب الساحر .

قد يكون الطبيب الساحر ذا قوة خارقة للطبيعة أو ذا شعور مرهف أو طبيباً نفسياً ماهراً عالماً بالعلاج الختيمي للأمراض يعالج بها المرضى الذين يشكون من العلل العادية إلى جانب طرقه السحرية . وحتى يصبح الساحر والطبيب الماهر كان عليه أن يتدرب على يد ساحر قضي في مهنته الأعوام الطوال حتى يعرف عنه العقاقير والأعشاب والطرق والأساليب السحرية التي كان يضطر أحياناً إلى بذل الكثير من الجهد والمال في سبيل الوصول إليها .

وفي أغلب الأحيان كان أبناء الأطباء السحرة يحلون محل آبائهم وتنتقل وسائلهم السرية وطرق تطبيبتهم عبر الأجيال لا تخرج عن عائلات معينة .

وعندما يصبح الطبيب والساحر للقرية أو القبيلة يرتدى ثياباً خاصة ويتناول أطعمة غير الأطعمة المألوفة ثم يعيش معتزلاً لا يتحدث إلى أحد في أمور الحياة العادية بل يصير الإنسان الغامض للجميع .

كانت الحال حرباً عواناً بين الساحر وبين الشياطين وأعمال السحر التي يعتقدون أنها سبب جميع الأمراض ، وكانوا يطاردونها بالأقنعة الخيفة والأبجزة والروائح الكريهة الخائفة والأصوات المفزعة والتصفيق بالأيدي والضرب على الطبول والصفائح وامتصاص الشيطان من الجسم المريض

بواسطة أنبوية مجوفة وحمل التأمم والرقى المضادة للسحر ، ثم تقديم القرابين والهدايا وتلاوة التعاويذ . ومن وسائلهم التي كثيراً ما كانوا يلجأون إليها أن يتناول المريض أشربة كريبه الطعم والرائحة حتى تضطر الأرواح الشريرة إلى مغادرة جسم العليل . وطريقة ثالثة أن يعالج بأعشاب أو أجزاء من النبات شبيهة في شكلها بالعضو المصاب .

لم يبق من تلك الطرق البدائية للعلاج بالسحر أو التوسل للآلهة أو بالأعشاب وغيرها من العقاقير إلا ما يمكن مشاهدته حتى اليوم في بعض مناطق العالم النائية عن العمران ، أو ما تركوه من نقوش وآثار في مصر والعراق والهند والصين وإيران واليونان وبعض البلاد الأوربية والأمريكية . وهي آثار قليلة وجاءت في أزمنة متأخرة كثيراً عن العصور الأولى للعلاج . ومن العسير أن نجزم بأن وسائل العلاج هذه كان أول ظهورها في إقليم ما وانتقلت إلى غيره في عصور تالية . ولكن هذه الآثار لما قيمتها البالغة لو عرفنا منها أعشابهم وطرق تطبيقهم . وما زال لبعض الأعشاب التي استعملوها قيمته الطبية المعترف بها .

فنبات (الراولفيا) الذي ذكرته أقدم كتب الطب الهندية كان يستعمل منذ آلاف الأعوام واعترف به الطب الحديث بوجود مادة (الرزربين) الفعالة لتهدئة الأعصاب وتخفيض الضغط المرتفع وتصنع منه حبوب وحقن يصفها الأطباء كثيراً في الأعوام الأخيرة . وكان المهاتما غاندى الزعيم الهندى يتناول مغلى نبات الراولفيا العلاج الشعبى المعروف فى الهند ، ليساعده على تحمل أعباء مسؤولياته الضخام دون إرهاق لحالته النفسية .

وشراب الجنسنج الذى عرفته الصين منذ أقدم العصور وذكرته دساتير الصين المغرقة فى القدم ما زال حتى اليوم عقاراً معروفاً وشعبياً . ويعد الصينيون منذ آلاف السنين لعلاج الاستسقاء شراباً من

مغلى جلود الضفادع ، وأثبتت بحوث العلماء فى أيامنا أن جلدها غنى بمادة (البوفاجين) المدر للبول و(الإدرينالين) ولهذا أيضاً فوائده الطبية المعروفة .

وإلى جانب الأعشاب الطبية توجد بين الأساليب الصيدلانية التى كان يلجأ إليها الإنسان البدائى صنوف من المواد المخدرة التى أريد بها تخفيف آلامهم وجراحاتهم مثل القنب والأفيون والكافور وإلى سبوم يضعونها فى أطراف سهامهم كالكيرار *curare* .

وإزداد اهتمام العلماء فى العصر الحديث بالعلاجات الطبية القديمة التى كانت على صورة أشربة وخلاصات يأخذها المريض عن طريق الفم أو مساحيق تخلط بالزيوت النباتية أو الدهون الحيوانية كمرهم للحروق والقروح وأبخرة تستنشق أو حتمن شرجية . وكثيراً ما كان يستعمل الدواء مع تلاوة التعاويذ السحرية أو الصلوات الدينية التى كان فى اعتقادهم أنها تزيد من قوة فعل الدواء . وبقيت بعض تلك العقاقير حتى اليوم واحتفى البعض الآخر بتقدم الطب المعاصر، كما زاد الاهتمام بدراسة ما تركوه من آثار . وإذا عثروا على أوراق أو جذور جافة أو قطع متناثرة منها أو من سيقان الأعشاب أو زهورها أو بذورها أو ثمارها فكثيراً ما يلاقون الصعاب فى الكشف عن حقيقة النبات وهل اندثرت فصيلته أو نوعه أم يوجد حتى اليوم . ومعرفة ما إذا كان يحتوى على جواهر فعالة .

وتشاهد أهمية الساحر الطبيب عند الأفريقيين الوطنيين حتى اليوم . إنهم يعرفون جيداً مئات الأنواع من أشجار الغابة وأعشابها ونباتاتها العطرية والمعادن والأملاح وخواصها وفوائدها عن طريق التجربة عبر الأجيال المتعاقبة .

وفى استطاعة الساحر أن يقتل كما كان فى استطاعته أن يبرئ .

وكان الساحر الذى يقتل أو يؤذى أى إنسان متبوذاً فى المجتمعات البدائية الحضارة . ويطلق على سحره السحر الأسود . ومن تثبت عليه تلك الجريمة الشنعاء يجب أن يعترف فوراً . فإذا أنكر قاموا باختبارات . ومن أهم تلك الاختبارات تجرع السم . فإذا كان بريئاً تقيأ السم ونجا من الموت . أما إذا كان يمارس السحر الأسود فلا بد أن يموت مسموماً . وكانت المواد السامة فى أنواع من الأعشاب يعرفونها تجمع بشرط خاصة وتحضر حسب طرق معينة وتركيز متفق عليه للسم فى الشراب .

إن اعتقادهم فى فعل السم كان يختلف تماماً عن الحقائق الطبية والكيمائية للمواد الفعالة به بأنه يقتل إذا وصل تركيزه إلى درجة معينة قد تبلغ أجزاء من المائة ألف أو عشرة آلاف أو أكثر أو أقل من ذلك . وتختلف مقاومة الأجسام فى حدود خاصة حسب قوة المادة السامة . فإذا زادت كميتها ولو قليلاً جداً فالموت واقع لا محالة . أما القدماء فكانوا يؤمنون بأن العقاقير لا تأثير لها ألبتة على الإنسان سواء كعقار شاف أو سم قاتل إلا إذا كانت مصحوبة بالصلوات والتعاويد .

وهناك اختبار آخر غريب كان معروفاً فى إفريقيا والهند وهو الماء . فلتأكد من ممارسة المذنب للسحر الأسود يلتقى فى بحيرة أو نهر . فإذا طفا ثانية فوق سطح الماء تثبت عليه جريمة السحر لأن الماء نبذه فقفد به ثانية ويكون جزاؤه القتل . أما إذا كان بريئاً - كما يعتمدون - فالنهر يقبله ويأخذ فى الغرق . وحينئذ يسارع السباحون إلى انتشاله من الماء وإنقاذه من الغرق .

ولا تزال آثار هذه المعتقدات القديمة موجودة حتى الآن عند بعض الشعوب . وإن كانت آخذة فى الانقراض سريعاً بتقدم المدنية وازدياد عدد المتعلمين .

كانت الظواهر الطبيعية الخارقة للعادة كالبرق والرعد والزلازل والثورات البركانية وفيضان الأنهار وصياح أنواع من الطير والولادات غير الطبيعية عند الإنسان والحيوان تعتبر نذيراً للحوادث المشؤومة . وفي أحيان أخرى كانوا يبحثون عن مثل تلك الدلائل على وقوع الخير أو الشر فيفحصون أحشاء الحيوان ، أو ينقط الزيت يلقونها في الماء أو غير ذلك من الطرق التي كانت منتشرة في المجتمعات الأولى . فإذا سقط الملح على الأرض كان دليلاً على قرب وقوع سوء لأهل البيت . ولكن كانت عندهم طرق لمنع وقوع ذلك الشر . فيأخذ أحد أهل هذا البيت بعض ذلك الملح ويلقيه من وراء كتفه .

وإذا أراد أحدهم السفر ورأى من العلامات أو الدلائل ما ينذر بوقوع الشر أجل سفره .

وفي جزر بورنيو مثلاً يعتقدون حتى الآن بأنهم إذا تقوا في طريقهم طيراً يطير عن يمينهم كان هذا فألاً طيباً . فإذا كان الواحد منهم في طريقه لزيارة مريض فإنه يتمنى أن يلتقي طيراً في طريقه على يمينه ليطمئن على قرب شفائه . وإذا تحققت أمنيته وقابل الطير جلس على الأرض وأخذ يمضغ قطعة من الطباق أو عشباً من الأعشاب حتى يمسك بتلابيب الحظ الحسن . ثم يضع القطعة التي مضغها في ورقة شجر ويحملها إلى المريض الذي يبتلعها ولا يد أن يشعر بتحسن في صحته على الفور ، وقد يكون ذلك للأثر النفسى على حالتهم المرضية .

وإذا فوجئ الزائر وهو في طريقه إلى بيت المريض برؤية طير عن يساره فهذا نذير شؤم . فما على الزائر إلا أن يدور حول نفسه ويعود إلى الورا حتى يجد الطير إلى يمينه . ويظل هكذا يسير في طريق نصف دائرى حول الطيور لتكون دائماً إلى يمينه وبذلك يتحول نذير الشؤم إلى فال حسن يحمله الزائر معه إلى بيت المريض .

وفي ميناء دربان في الناتال كان يشاهد في السوق الوطنية وفي الحى الذى يعيش فيه أهل البلاد الأصليون حوانيت تباع الأعشاب الطبية والمعادن والثمار المجففة وأدوات السحر من أحجبة وجماجم وجلود ثعابين وعيون وأسنان . إنهم يعرفون كثيراً من الوصفات الطبية والسحرية من الأعشاب ، وقد أثبت الطب الحديث فائدتها ؛ كما أن هناك من العقاقير السامة ما يعطى ترياقاً لسموم أخرى . وقد انتشر العلاج بالترياق عند العرب ثم في أوربا خلال العصور الوسطى . وفي موزمبيق وفي أنجولا وجزيرة (ساو توميه) على خط الاستواء في المحيط الأطلنطى يجلس بائع العقاقير على قارعة الطريق وقد وضع أمامه عشرات الأنواع من الأعشاب والحجارة وجلود الحيوان وشعرها وقطع العظام والزيوت والدهون . وفي غابات الكونغو وأنجولا واتحاد جنوب إفريقيا وغيرها من البلاد الإفريقية ترى الأثر البالغ للسحر وخوفهم منه ثم التجاءهم إلى الطبيب الساحر الذى يعتبر أهم رجل في القرية .

ويعتقدون أن فى استطاعته أن يشفيهم حتى واو كان فى بلدة بعيدة عنهم . ويقدمون له النقود ليعد عنهم الأمراض والنكبات ويمنحهم الأحجبة والتأمم التى يؤمنون بأنها تجلب لهم الثروة والخير وتحفظ عليهم صحتهم . ومن المناظر المألوفة لديهم رؤية الساحر يمتطى حصاناً أو حماراً يدخل إحدى القرى فيلتفون حوله هذا يطلب منه شراء تميمة تقيه من الكسور فى الحروب والمعارك وآخر ضد الأمراض وثالث ضد عضه الحيات وآخر ضد الأرواح الشريرة والعين الحاسدة . وتوجد التأمم داخل أكياس وضعت بها أشياء مختلفة مثل قرون الحماموس وريش العصفير الحمراء أو بعض الطين الأحمر اللون أو أسنان أو شعر حيوانات الغابة وقطع من جماجم بشرية قتل أصحابها لهذا الغرض . ويعلقون التأمم أحياناً فوق أكواخهم أو على أشجار وسط زراعاتهم لتبعد عنها



بائع الأحذية أو الساحر الطيب في أفريقيا

الشر . ولا يزال الكثيرون من سكان المناطق الإفريقية ذات الغابات ،
والنائية عن العمران يعتقدون أن الأمراض تسببها الأرواح وكذا السحر
ثم الديدان التي يعبرون بها عن المرض فيقال إن هذا المريض عنده ديدان
في الصدر أو الأمعاء أو في الرأس ويجعون كل عقاقيرهم والشعائر
السحرية من أغان ورقص وإطلاق أبخرة وروائح كريهة وأدوية ذات
طعم مقزز قصد بها إخراج هذه الديدان والتخلص منها حتى يشفى
المريض .

لم تتغير هذه الغابات والأحراش كثيراً منذ آلاف السنين بالرغم
من اختفاء كثير من الحيوانات الضارية وامتداد العمران وإنشاء الطرق
الممهدة التي تصل حتى القرى وسط الغابة والمكونة من أكواخ بنيت
من فروع الأشجار والأواح الصنميج أو الغاب .
إن حياة أهلها وطرق تطبيبتهم وسحرهم لم تتغير إلا قليلاً خلال
تلك الأجيال الطويلة وتقدم صورة قريبة بعض الشيء من مظاهر
الحياة منذ آلاف السنين .

ويشاهد حتى اليوم في الريف الهندي والمصرى وغيرهما من البلاد
الآسيوية والإفريقية كيف يعالج ملايين المرضى بطرق اختلطت فيها
الطب الشعبي القديم بالسحر ، وتجد في بعض الكتب القديمة وصفات
ضد السحر والأرواح الشريرة والحسد إلى جانب وصفات طبية كشف
الطب الحديث عن أثر بعضها الناجع في علاج الأمراض . وآمن كثيرون
بالعلاجات الشعبية حتى من بين المتعلمين والأطباء أنفسهم . ومعظم
العقاقير الشعبية القديمة لا تزيد عن أطعمة وأعشاب وأملاح معادن
وزيوت استعملت في الأصل لأغراض منزلية أو نمت في الحقول
المجاورة . . . ويمارسون أيضاً الفصد والكنى والحجامة كما كان يمارسها
القدماء .

واللبخات كعلاج طبي أو سحري صنعت من أوراق أنواع خاصة من النبات تدق وتعجن مع دهون أو زيوت وقد يكون مع روث الحمير أو الجاموس . ثم توضع محل الألم . وينزعها المعالج وهو الطبيب الساحر ليرى المجتمعون حول فراش المريض جسماً غريباً داخل اللبخة يعتقدون أنه دخل جسم المريض بطريق السحر . . .

وفي جزر الملايو يصنع الطبيب الساحر دمية من ورق الشجر ويضعها فوق رأس المريض مع بعض الطعام . ومن معتقداتهم أن الأرواح الشريرة تخرج لتأكلها وفي تلك اللحظة يقطع الساحر رأس الدمية (العروسة) التي انتقلت إليها الأرواح الشريرة .

إن قصة الطب في المائة العام الأخيرة وتقدمه السريع المذهل منذ ثلاثين عاماً قصة رائعة . . .

فن العقاقير ما كشف عنه منذ أعوام قليلة ثم أخذ مكانه عقاقير أخرى جديدة اختفت بدورها وأصبحت نسياً منسياً في ركن من أركان الصيدليات .

فمثلاً سكان بيرو الأصليون من الهنود الحمر يستعملون الشاي المصنوع من خشب الكينا لعلاج الحمى ، ونقلها الرهبان الكاثوليك معهم إلى أوروبا واستخرج منها الكيناويون فيما بعد أملاح الكينين القلوية . أذكر أن والدي رحمه الله كان أصيب بالحمى (المالتية) عام ١٩٣٧ تقريباً ولم يكن في جعبة الأطباء المعالجين حينذاك من عقار لتخفيض حرارة الحمى سوى أملاح الكينين . فإذا هبطت الحرارة قليلاً فرح الطبيب . وهلل لمفعول الكينين السحري الذي يفوق الأسبيرين وأشباهه . ولكن الحرارة كانت لا تلبث أن تعود إلى الارتفاع . إن أملاح الكينا ما زالت محتفظة بقيمتها الطبية في علاج الملاريا وأمراض أخرى . وفي ذلك الوقت تقريباً ظهر البرونتوزيل وهو أول سلفاناميد

استعمل في العلاج ، ولم يكن البرونتوزيل في بدء أمره سوى جزء من مادة كماوية ملونة مركبة في المعمل تستعمل في صباغة الأقمشة . ثم استعملت مركبات كماوية أدخل على تركيبها تحسينات حتى تكون أعظم أثراً وأقل ضرراً . وجاء بعدها عقاقير كالمضادات الحيوية : البنسلين والستر بتومايسين والكاورماستين والتراتسيكلين . . .

وكانت إحدى السيدات المشتغلات بالعلاج الشعبي في إنجلترا أواخر القرن الثامن عشر تصف مزيجاً من الأعشاب مكوناً من عشرين نباتاً مختلفاً لمداواة الاستسقاء وأمراض القلب . وقام الدكتور (ويايم ويزرنج) بإجراء أبحاث طويلة ومختلفة عرف بعدها أن نبات الديدجتالا له ذلك الأثر الطيب على القلب والاستسقاء وهو موجود في مادة الديدجتالا . وفي أوروبا ومصر وربما كان ذلك في بلاد أخرى يوجد أطباء يصفون حتى اليوم مزيجاً من الأعشاب خلطت بنسب معينة . بل هناك بعض الصيدليات في أوروبا تباع أكياساً وعلباً بها صنوف الأعشاب يكتب عليها أسماء الأعشاب وأجزائها المستعملة وقد يحتفظون بأسمائها سرّاً . فيكتب عليها فقط طريقة الاستعمال والفوائد الطبية .

ومنذ عشرين عاماً تقريباً كان شيئاً مألوفاً في الأسواق الأسبوعية في الريف المصري رؤية الدجالين يعالجون المرضى ويبيعونهم قطرات العين السائلة والجافة والأشربة المقوية والمنقية للدم والشافية من الأمراض والحُميات والمراهم العجيبة والأقراص والحبوب ذات التأثير السحري لتقوية الأعصاب أو ضد الإسهال أو الإمساك .

وظل الكثيرون من الفلاحين وأهل الريف من الفقراء يعتمدون في تطبيبهم على حلاقي الصحة والعطارين والدايات ومدعي الطب والسحرة إذ قد يتعسر على مرضاهم الانتقال إلى المستشفيات في المدن أو إلى

عيادات الأطباء أو تمنعهم تقاليد قديمة من معالجة نساءهم . وكثيراً ما كان يحدث أن نساء الريف يصبن بنزيف خطير قد يكون نتيجة جهل مدعيات الطب والمولدات الجاهلات وعبثاً يحاول أطباء المستشفى أو المرضات نقلهن لإنقاذهن .

سومر وبابل وآشور

يبدأ التاريخ المعروف للعلاج في أرض العراق أو بلاد النهرين دجلة والفرات . وكانت من أوائل الشعوب القديمة ذات الحضارة التي عاشت قبل الميلاد بنحو ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة وعاصرت أولى الحضارات المصرية القديمة . أى هاتين الحضارتين كان أسبق ؟ . . . هذا ما لم يمكن تأكيده حتى اليوم وإن كانت أقدم الآثار التي وصلت إلينا وكشفت عن مدنيتهما وعن آثارها الطيبة لشعب سومر بالقرب من رأس الخليج الفارسي . وعرف من آثار كل من مصر وسومر القديمة أن هناك شياً كبيراً بين مخلفات العصر الحجري فالنحاسي فالبرونزي فالحديدى في كل منهما . وكذلك اقتصاديات البلاد، ونظم حكمهما ومعتقداتهما الدينية وما تركوه من آثار فنية وأدبية ومعيشة أهلها . وكان الطب عند كليهما مزيجاً من الطب الواقعي والدين والسحر . وأثرت مدنيتهما فيما حولهما من بلاد حوض البحر الأبيض المتوسط وآسيا .

وكان من مظاهر مدينة سومر وبابل النقش على الصخور والكتابة على ألواح الطين بقلم مدبب من الغاب لذلك سميت بالكتابة المسهارية ثم تجفف الألواح في الشمس أو في أفران .

وقد بقي إلى يومنا هذا عدد كبير منها وإن كان الكثير منها قد تحطم إلى قطع صغيرة من الصعب الجمع بين أجزائها المتناثرة أو العثور على كل أجزاء اللوح الواحد . من بينها آثار طبية وأدبية وتاريخية رائعة بقيت تلك الآلاف من السنين لتقص على العالم أولى حضاراته . كان من بينها قصص عن بداية الخليقة والظوفان الذي جاء ذكره في الكتب المقدسة .

وقد عثر فعلا على عمق كبير تحت الأرض على آثار تدل على حدوث فيضان مروّع قبل ذلك التاريخ بألاف أخرى من الأعوام .

وقد عثر على مكتبة كاملة من هذه الألواح الطينية جمعها الملك آشور بانيبال الذى حكم آشور فى القرن السابع قبل الميلاد وكان له الفضل فى تسجيل المعلومات الطبية وغيرها من العلوم والفنون والآداب التى ازدهرت فى عهده . ومعظم هذه الألواح سجلات رسمية وتواريخ الملوك والآلهة وعقاقير طبية وتعاويد سحرية وأناشيد دينية . وقد قام بدراستها العالم الأثرى كامبل تومسون ونشر نحو ستمائة وستين لوحة طبية وكذلك كتاب (الأعشاب الآشورية) ذكر فيه أكثر من مائتين وخمسين من العقاقير النباتية التى استعملها أهل سومر وبابل وآشور .

ومن بين الألواح الطينية ما اختلطت فيها التعاويد والرقى والأناشيد التى يلقيها الأطباء الكهنة عند زيارتهم للمريض وقوائم بأسماء الأعشاب والمواد الحيوانية والمعدنية ونصائح لعلاج الحمى والصداع وأمراض العيون والآذان والأسنان والصدر والأمعاء وغيرها من مختلف الأمراض .

ويبدأ الطبيب الساحر أو الطبيب الكاهن بالاستقصاء عن أسباب المرض فلا بد أن يكون بسبب ارتكاب المريض بعض الأخطاء بعلم أو دون علم مما أساء إلى أحد الآلهة أو الشياطين . أو نسى تعليق التيممة التى يجب عليه ألا يخلعها من عنقه . أو أكل سمكاً فى الأيام المحرم أكله فيها ، أو سمع كلباً ينبح وراء أسوار المدينة وقت غروب الشمس ، وربما كان ذلك بسبب نعيق غراب أسود على يمينه وهو فى الطريق إلى بيته وإذا لم يكن شئ من ذلك فقد يكون بسبب لعنة أو سحر دبره له أعداؤه .

وقد ييأس الطبيب الساحر من معرفة تلك الروح الشريرة فيسميها جميعاً بأسمائها . فإذا ذكر اسمها خرجت من جسم المريض . وربما

يستعصى على أمهر الأطباء الكهنة والسحرة إخراج تلك الشياطين والأرواح فيطلبون العون من (يا) إله مدينة (إريدو) وهو أيضاً إله النور والخير . وينشد الكاهن التراتيل ويضع أمام المريض العسل والزبد والبلح والثوم لعله يغرى الروح بالخروج للأكل منها . ثم يحرقها الطيب الكاهن . وإذا لم تنجح هذه الطرق فني جعبته وسائل أخرى كثيرة . فيعدّ للعليل شراباً تعافه النفس لا يكاد يتجرعه المريض حتى يولى الشيطان الأدبار . أو يشعل النار في بعض الأعشاب والصمغ التي لا تلبث أن تنتشر أجزئها حول المريض . أو يلجأ الساحر الطيب إلى دمية صغيرة مصنوعة من الشمع ويوجه الحديث إلى الروح ليغريها بالدخول في جسم الدمية .

وعندما تنتشر الأوبئة ويرى الكهنة الأطباء ألوف المرضى يموتون ولا سبيل إلى إنقاذهم فإنهم يلازمون معابدهم ويرقبون تحركات النجوم في السماء . ويعرفون منها إذا كان الوباء سيزداد انتشاراً أو في طريق الزوال . وذلك بتجمع النجوم في ركن معين من السماء إذا بدأ التحرك عنه كان دليلاً على قرب نهاية الوباء .

واشتهر الكهنة البابليون بالتنبؤ عن المستقبل وعن شفاء المرضى أو موتهم بدراسة كبد الماشية ومقارنتها بكبد مثالية صنعت في قالب من الطين . كانوا يؤمنون بأن الكبد هو مقر الروح . روح الإنسان الغامضة . فإذا وجدوا في الكبد التي بين أيديهم تغييراً كبيراً عن تمثال الكبد المصنوع من الطين دلهم ذلك على ما ينتظرهم من خير أو شر . وعرف عن أهل بابل أن المريض إذا يئس الأطباء من شفائه حملوه إلى الطريق العام ليراه المارة وقد يصف له أحدهم علاجاً عرفه من قبل لمثل مرضه .

وسجلت التعاويذ والأناشيد والوصفات وأنواع العلاج والعقاقير

في الاوحات الطينية المحروقة .

ووجد من بينها عدد كبير من الاوحات الطبية التي أصبحت مرجعاً هاماً لدراسة العقاقير السومرية .

وعثروا منذ أكثر من خمسين سنة على أوححة طيبة لأنواع العلاج بالعقاقير التي كان أكثرها من النباتات وبعض المواد الحيوانية والمعدنية في مكتبة (نفر) وإن لم تترجم إلا منذ أعوام قليلة . يوجد بها اثنتا عشرة وصفة أو تذكرة طبية وتعتبر أول دستور للأدوية في العالم .

وفي إحداها « نظف جلد ثعبان الماء ثم جففه واسحقه . اخلطه بنبات (الأمامشد وباسكال) وجذور الآس والمسحوق القلوي والشعير وراتنج شجر الشربين وجلد طائر (الكوشيو) . اغمرها بالماء واغلبها على النار . افصل هذا الماء واغسل الجسم المريض وضع عليه زيت الشجر وأضف إليه (الشاك) » .

وهذه تذكرة طبية أخرى « اسحق خشب شجر الكمثرى مع زهور نبات القمر . ثم أذبها في الجعة وايشربها المريض » .

والصداع « نصف مقياس من الخردل المسحوق معجون بماء الورد يوضع فوق الرأس ويغطي برباط لمدة ثلاثة أيام » .

واستعملوا الحقن الشرجية والابوسات والتقيؤ لعلاج أمراض المعدة . وكان يتبع مع هذا العلاج نظام غذائي مقصور على اللبن أو السوائل .

ولأمراض الصدر استعملوا جهازاً خاصاً . يضعون مغلى الشمر في إناء تغلق فتحته بالطين وتمرر منها غابة رقيقة توضع في فم المريض لتأتي البخار . « ويستمر العلاج تسعة أيام »

ومن الأملاح التي استعملوها وذكرتها الاوححة الطبية مالح الطعام (كلوزور الصوديوم) وملح البارود (نترات البوتاسيوم) . وذكر في

إحدى الوصفات طين النهر المسحوق لاستعماله كعقار يخلط بالعسل .
 واستعمل زيت النهر وزيت الشجر . وعرفوا صناعة الصابون بمزج
 المسحوق القلوي الذي عرفوا كيفية تحضيره من النباتات القلوية مع
 بعض الشحوم والزيوت .

وعرفوا طلاعات الوجه ودهان الشعر لإطالته وإزالة الشيب
 وكان علاجها « صفراء الثور الأسود والعقرب والحنزير ورأس الغراب
 الأسود والقلق (البجع) مع الأفيون وبعض العقاقير الأخرى والزيوت » .
 ومن هذه الاوحة الطبية وغيرها من الاوحت عرف عدد كبير من
 النباتات والحيوانات والمعادن .

فمن النباتات التي عرفوها ذات العقاقير المخدرة والمهدئة للآلام
 كالأفيون والحشيش والبلادونا واللفلاح .
 ومن النباتات السامة الخطرة الشيكرا .

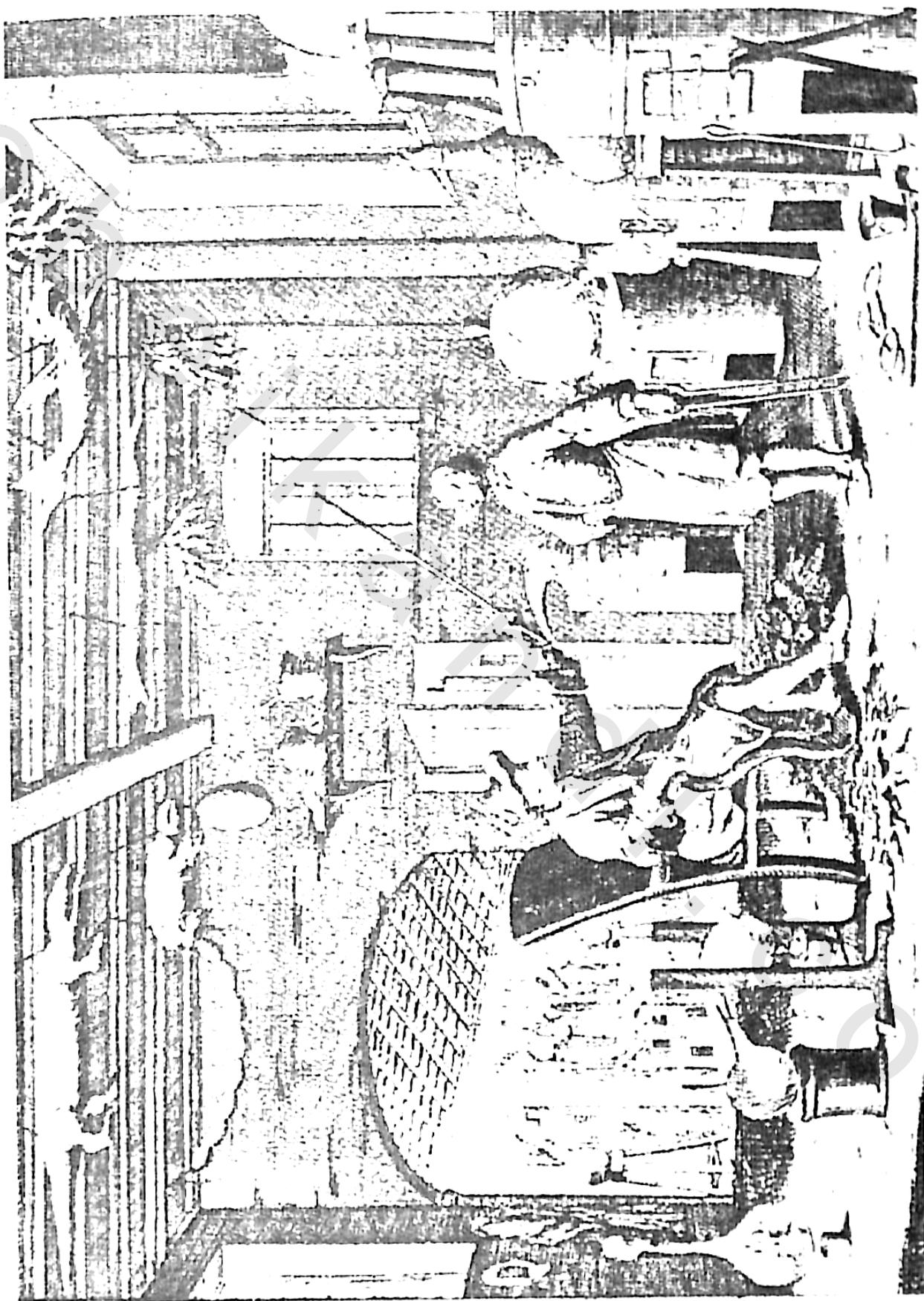
والشيخ بابونج لاضطرابات المعدة والأمعاء . ومن المسهلات بذور
 الخردل تؤخذ كما هي . وتستعمل أيضاً لعمل اللبخات . والخردل في الماء
 للتقيؤ . وكان للخربق Hellabour أهمية طبية كبيرة للعلاج من
 الداخل والخارج والتبخير . ويبدو من كتاباتهم اهتمامهم بماء الورد وكان
 من الأدوية العزيزة الغالية الثمن التي تحضر في معابد بابل . .

ومن النباتات ذات العقاقير القاسية (التمثاء الخنثى) والشيكوريا
 والحس والبصل والخيار والترمس والثوم والزعر والشمر والكرابية وجذور
 عباد الشمس والحلتيت . . . والقمح والشعير والذرة الرفيعة .
 وكانت العقاقير تعد من الثمار وعصارتها أو البذور والجذور والأوراق
 والراتنجات والصمغ .

ومن العقاقير التي كان يصفها قدماء أطباء بابل تلك التي كانوا ينسبون
 إليها فوائد كثيرة مما يضطرونا للشك في فائدتها وأن بعضها علاجات سحرية



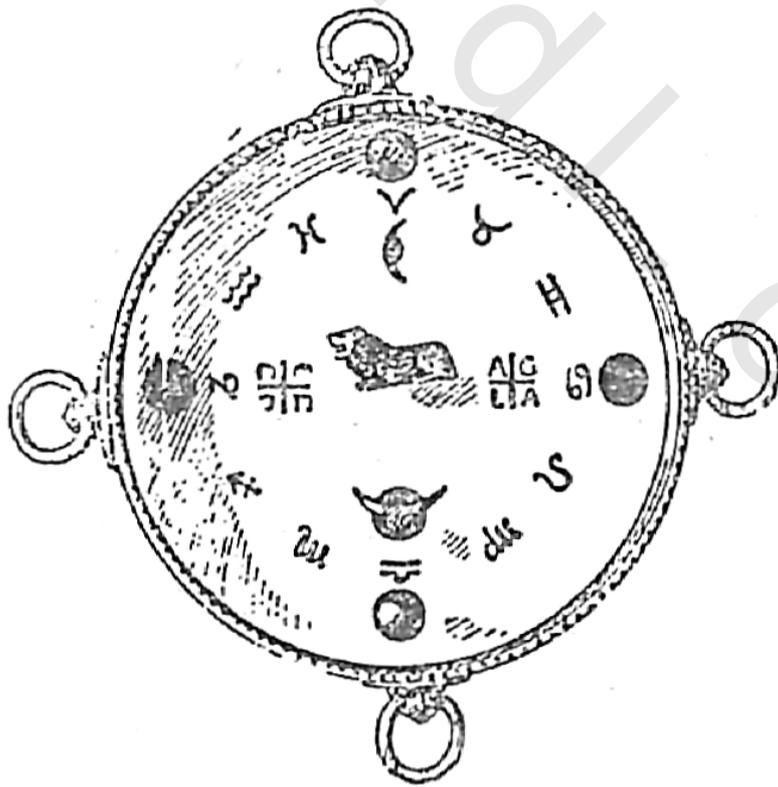
أبو بكر الرازي



معمل كپاوى فى القرن الثامن عشر

ومن هذه العقاقير ما كانوا يسمونه (أمهور - باني) ويغلب على الظن أنه نبات الأبقحوان الأصفر وقد أوصوا به كدهان للدغ العقرب وآلام الأسنان وغسول للوجه والأذن والعين . ويعطى على هيئة شراب لايرقان واضطرابات المعدة ولدغة الحية والأمراض التناسلية وطرد الشياطين من الجسم .

ومثال ذلك أنهم كانوا يوجهون اهتمامهم لشروط هي إلى السحر أقرب منها إلى الطب مثل الأماكن التي يزرع فيها ووقت جمعها . فتستعمل مثلاً جذور نوع من نبات الحسك الذي ينمو فوق القبور لعلاج بعض الأمراض . وعقاقير أخرى يجب أن يشربها العليل في الصباح على الريق . ومن الحيوانات دهن الحية السوداء ولبن بقرة بيضاء . وعين ودم الدجاجة . ولسان الفأر . وشعر الكلب والثعلب . وهذه أيضاً



حجاب يعلق على الصدر للوقاية من الأمراض

يظهر عليها الطابع السحري .

ومن المعادن الفيروز والياقوت وغيرهما من الأحجار النفيسة والمعادن ،
والتراب يؤخذ من أطلال منزل أو معبد قديم . وكانت العقاقير تحضر
بعناية فتسحق في الهاون أو تغلى في الماء أو تمزج بالدهون ولم يذكرها
إلا نادراً كميات العناصر الداخلة في الأدوية بل ترك لتقدير
الصيدلى الطيب .

الصيدلة والطب في مصر القديمة

بقيت صور من حياة المصريين القدماء آلافاً من السنين منقوشة على جدران الأهرام والمعابد والتبور ، وفي أوراق البردى التي تعد من أروع كشوف الإنسانية التي قفزت بالحضارة خطوات كبيرة إلى الأمام فسجلت التاريخ والعلوم والفنون . وعثر على أقمشة وأدوات تستعمل في الحياة اليومية في صنابير من البرونز والفخار والرخام بها عقاقير وجذور جافة ومراهم وأطلية للوجه وكحل للعين وأنواع من الغذاء إذ كان المصريون يعتقدون في حياة أخرى بعد الموت . ولإيمانهم بهذه الحياة الأخرى أتقنوا فن التحنيط مما يدل على باوعهم شأواً عالياً في الكيمياء التجريبية .

وأدركوا بما كانوا يشاهدونه في الدور الخاصة بالتحنيط أن تخمر الأطعمة في الأمعاء وتعفنها هو السبب في كثير من الأمراض وأن نظافة الأمعاء بالنظام الغذائي والحقن الشرجية والمليينات والمسهلات من أهم العوامل التي تحفظ للمرء صحته وتقيه من أمراض كثيرة فجعلوا من أهم عاداتهم الصحية . وهم الذين عرفوا أن حفظ الأجسام بالتجفيف الشمسي يحتاج إلى وقت طويل كما أن التسخين يحال الجسم . فاستخدموا التحنيط بواسطة مواد كيميائية حافظة كماح الطعام ومالح النطرون والزيوت العطرية .

وتعجب حين تعلم أن ملح النطرون من أهم صفاته إذابة الشحوم والدهون إلى جانب حفظ الجسم .

ويقدم لنا كل من هيرودوت وديودور الصقلي أوصافاً رائعة لعملية التحنيط من تنظيف الأحشاء وغمر في محلول من أملاح النطرون وغيرها

أو وضعها في هذه الأملاح وهي جافة كما جاء في إحدى كتابات
هيرودوت « يوضع في ملح النظرون سبعين يوماً » والترجمة لوصفه أنها
تملح كما تملح الأسماك بوضعها في الملح الجاف .

واستخلصوا العطور من الزهور بواسطة الزيوت والدهون .

وتوصلوا إلى صنع الزجاج بمزج الرمل مع النظرون وما زالت حتى
الآن في وادي النظرون آثار تدل على صناعة الزجاج منذ آلاف السنين ،
بل إنهم كانوا يخلطون الزجاج المنصهر بمواد كيميائية أخرى بنسب معينة
وبطرق خاصة فحصلوا على أنواع مختلفة من الزجاج منها الأواني والقوارير
وذات ألوان شفافة بيضاء وحمراء وخضراء وزرقاء .

ومهروا في إعداد الجرعات الدوائية وبرعوا في طرق تحضيرها بالغلي
والترشيح أو السحق في الهاون أو بين حجرين وأجهزة للعصر في أكياس ،
ثم يضغط عليها بواسطة عدد من العصي .

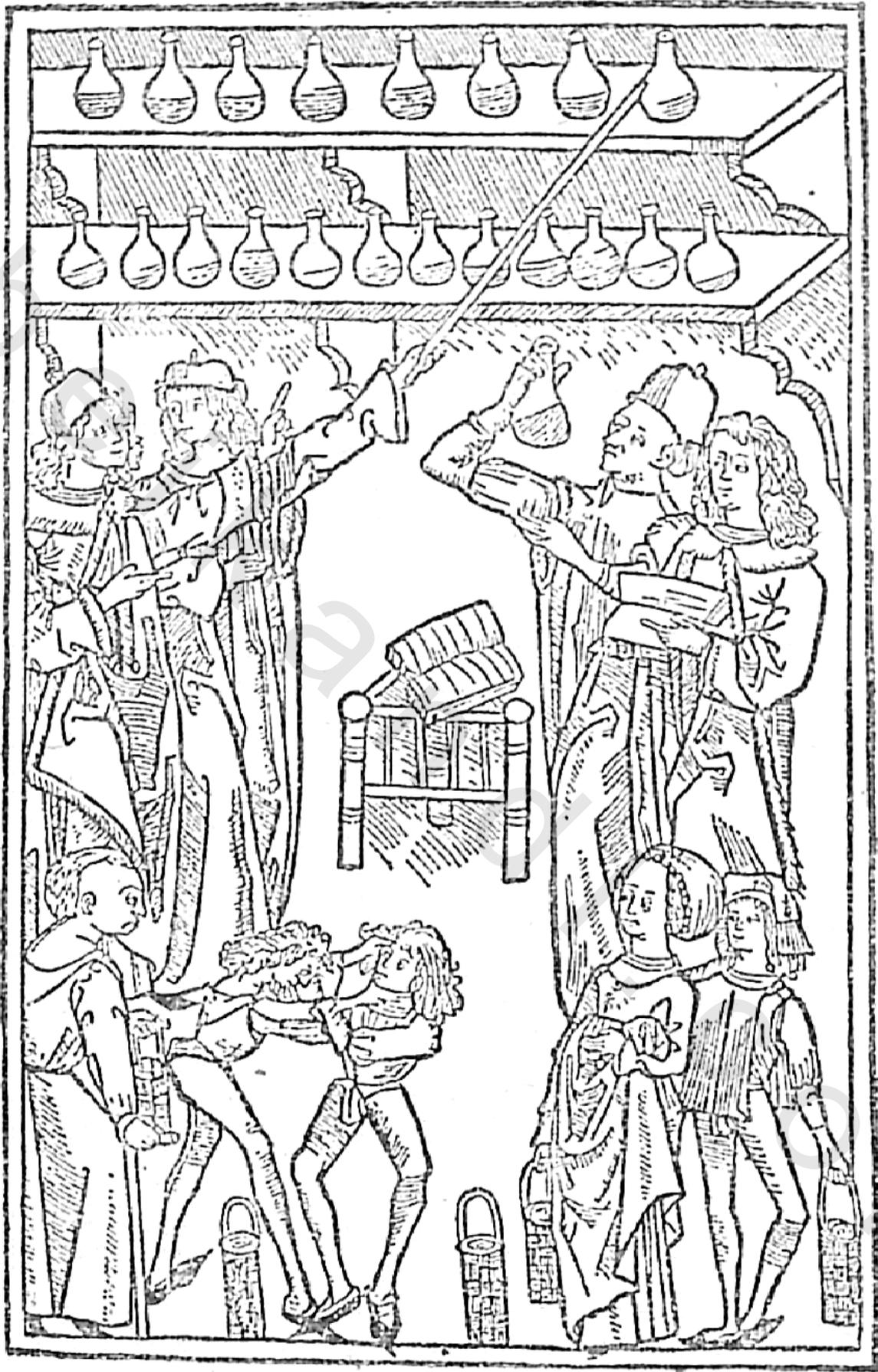
واستعملوا الأواني الفخارية لتنقية الماء وتبريده .

كذلك عمليات النخل والتجفيف الشمسي وفي الأفران والتبخير
واستخلاص الأملاح من السوائل والعصارات .

كما يبدو مما تركوه من آثار تقدمهم في التعدين ومهاراتهم في الكشف
عن خامات النحاس والحديد والقصدير والأنتمون والذهب والحجارة
النفيسة كالفاروز والملازورد وطرق تنقيتها بوسائل جديدة بالإعجاب
إذ تقدموا في تلك العاوم آلاف السنين عن العالم المعروف في ذلك الزمان .

عرفوا وقد يكون ذلك بطريق المصادفة أن النحاس بمزجه مع القصدير
يتحول إلى معدن البرونز الأكثر صلابة والذي نقل الحضارة إلى العصر
البرونزي .

واستخدموا الكور لزيادة الحرارة في أفران الصهر .



رسم مختور على الحشب لأستاذ يجرى تجربة على تحليل البول أمام تلاميذه

وقطعوا الأحجار الجيرية من الجبال القريبة من النيل، والرخام بالقرب من تل العمارنة، والجرانيت من وادى الحمامات بين كويتوس والبحر الأحمر ونقلت تلك الكتل الضخمة التي تزن عدة أطنان إلى عواصم ملكتهم في طيبة ومنف وعين شمس .

وهم أول من استخدم المحراث في الزراعة . وأقاموا السدود والخزانات لتنظيم رى الأراضى واتقاء الفيضان . ونبت فى أرضهم الحصبة الخضراوات والفواكهة والكروم والحبوب . واعتنوا بتربية الماشية من أغنام وطيور . وكان لهم من الماشية اللبن يشربونه كثيراً فى الصحة والمرض . وأتقنوا صناعة الجلود ودبغها وصبغها بالأوان اعمل أغطية أسرة النوم والمقاعد والأوسائد .

وكانت الأقمشة من الكتان متينة ومتقنة الصنع إلى حد أنها شفاقة كالحرير شبيهة به أيضاً فى ملمسه .

وكان نبات البردى ينمو فى مستنقعات الدلتا ، صنعوا منه أقمشة وأكاليل للآلهة واستخدموا ساقه طعاماً واتخذوا من جذوره وسيقانه قوارب وسلالا وحصراً استعملت كأسرة للنوم وصناديق وحبال . وأروع ما استعملوه من نبات البردى هو سيقانه لعمل ورق البردى الذى يعتبر من أهم كشوف المصريين كأداة لنشر العلم وتخليده .

ولا يزال تمثال الكاتب الجالس ممسكاً بيديه ورق البردى دليلاً على تقدير المصريين لامتعلم . . .

ويخاطب الأب العجوز ابنه قائلاً « يا بنى ! واظب على طلب العلم حتى تصبح كاتباً . فالكاتب دائماً فى مقدمة الركب . لن يجوع أبداً . إن بطنه دائماً ممتلئ بفضل علمه وحكمته . وينال شرف الجلوس على مائدة فرعون » .

ودون كثير من علومهم وفنونهم وطبعمهم فى عدد من قراطيس البردى

صنعت بطريقة بارعة على شكل كتاب كامل يتكون من انماث طويلة يالصق طرف كل واحدة منها بالتي تليها ، وقد يصل طولها إلى ثلاثين متراً أو أكثر .

وصنعوا الحبر الأسود بمزج السناج (المادة الكربونية التي ترسب على الجدران) مع الصمغ والماء .

وَصَنَعُوا الحبر الأحمر يكتبون به ملاحظاتهم إلى جانب الكتابة بالحبر الأسود أو لتصحيح أو كتابة المقادير . ومن حسن الحظ أنهم وجدوا في مستنقعات البردى نباتاً آخر وهو السمار أمدهم بأقلام مدببة الطرف للكتابة بها على القراطيس . وكان من بين البرديات التي عثر عليها عدد من البرديات الطبية أهمها بردية (إيبرس) وتبلغ سطورها ٢٢٨٩ سطرًا وبردية (سميث) من ٤٦٩ سطرًا وبرديات أخرى صغيرة أو قديمة مهلهلة مثل لفائف كاهون لأمراض النساء وكاهون للأمراض البيطرية وبرلين المسماة (وستكار) وبرلين للأمهات والأطفال و (جاردنر) . . . ودراستها تكاد تكون دراسة شاملة لطب المصريين القدماء وصورة لما كان عليه . ومن بين أمراضهم التي عالجوها بالوصفات الطبية ما ذاع صيته وثبتت فائدته وانتقل عبر البحر المتوسط إلى اليونان وسائر بلاد أوربا ولا يزال بعضها معروفاً حتى اليوم في ريفهم .

كان جزء كبير من طب بقراط وجالينوس وديوسقوريدس مأخوذاً عن الطب المصري كما أن كلمة (فارما كوبيا) التي تعني دستور الأدوية يرجع أصلها إلى الكلمة المصرية القديمة (فارما كي) أي الذي يمنح الشفاء .

كان الطب المصري القديم متقدماً على غيره بالرغم مما خالطه من دين وسحر . كان ثوث وأوزيريس وإيزيس آلهة للطب وجاء من بعدهم أمحتب الذي مارس الطب والهندسة والفلك والدين . وهو الذي نبى

هرم سقارة المدرج في عهد الملك زوسر حوالي عام ٢٩٠٠ ق.م. وورقه
المصريون فيما بعد إلى درجة الآلهة . وأقاموا له مثل غيره من الآلهة المعابد
في منف وطيبة وصالحجر وأون وغيرها وجعلوا من تلك المعابد مدارس
للطب وتعاليم الدين . وأطلقوا عايتها (بيوت الحياة) . أخذ يكبر شأنها
وتفوذ الكهنة على مر الأيام . وكان جزء منها مخصصاً لإقامة المرضى والنساء
العقيات . ومارس الكهنة العلاج بالصلوات والتضرعات والآلهة وتقديم
القرابين وعالجوا بالرق والسحر والطلاسم . وقد تفيد هذه الوسائل في
بعض الأحيان كما يفعل الطب النفسي في العصر الحديث من شفاء عدد
من المرضى . وجمعوا بينها وبين العلاج بالعقاقير بعدما الصيادلة في
معاملهم داخل المعابد أيضاً . وهم الذين يقوون بجمع الأعشاب الطبية
من جذور وسيقان وأوراق وزهور وثمار وبدور يستعملونها على هيئة
مساحيق أو أشربة والعقاقير المعدنية والحيوانية واختزانها في أماكن خاصة .

وكان الأطباء والكهنة يذهبون بأنفسهم إلى منازل المرضى لعلاجهم
بالسحر أو الصلاة أو بالعقاقير أو الزيوت والدهون يدلكون بها مواضع
أوجاعهم أو قروحهم وجروحهم وكسورهم .

وفرق (الكتاب السرى للقلب) بين الطبيب وكاهن سخمت
والساحر . فكان بعض المرضى يقصدون الساحر وآخرون الكاهن والبعض
الثالث رجال الطب والصيادلة الذين يعالجون بالعقاقير . بل إن بعضهم
كان ينتقل من أحدهم إلى الآخر . وكانت العقاقير في أول الأمر يتجرعها
المريض كعلاج سحري لإخراج الشياطين أو (الدودة) أو (الأوخذو) . .
وكانت الجعة والعسل هما المادتين الأساسيتين تمزج بهما العقاقير ليستسيغها
المريض أو الزيوت والشحوم للمراهم . أو ماء الشعير كغذاء وحيد في
حالات الامتناع عن الطعام . والثوم والأعشاب التي عرفت خواصها
السحرية يتلون عليها الأناشيد والصلوات ويستعملون كواباً اتخذ كعيار

مقدس للأدوية .

وقد ذكرت بردية (هيرست) التعويذة الآتية لتتلى على العقاقير « هذه الكأس التي أقيس بها الدواء هي الكأس التي قاس بها (حورس) عينه التي أتقن قياسها فنحته الحياة والسعادة والصحة . وهذا الدواء الذي يقاس في هذه الكأس يخرج من الجسم جميع الأمراض . . . » .

بدأت المعايير في العلاج السحري والديني ثم استعملت اقياس الكميات المضبوطة من الأصناف المختلفة التي يتجرعها المريض وقد يبلغ عددها في العقار الواحد خمسة وثلاثين صنفاً . ومن أهم المعايير التي كانوا يقيسون بها :

(دو) ويساوي خمسة عشر سنتيمتراً مكعباً أو ملعقة كبيرة .

واستعملوا الميزان في وزن العقاقير بعد أن كان الغرض منه وزن الحسنات والسيئات .

ومن أوزانهم (القدت) ويساوي تسعة جرامات وثلاث جرام و (الدين) ويوازي عشرة من (القدت) .

وكانت تصاحب عملية مزج العقاقير التي يتناولها المريض تلاوة التعاويد والصلوات والأناشيد . نهم يعتقدون أن تأثير العقار ليس في صفاته الأقرباذهيه أو نتيجة تجاربهم بل هو تأثير سحري . فلكل نوع من الأعشاب أو أملاح المعادن أو العقاقير الحيوانية خواص سحرية خاصة به وتتلوا عليه كلمات معينة . وكانت هذه بداية العلاج بالعقاقير . فبعد أن كانت تؤخذ لأغراض سحرية ودينية أصبحت على مرّ الأيام عقاقير طبية بقي منها ما ثبتت ذاتته وأهل ما كان ضاراً .

ومن البرديات ما يمكن اعتباره كتباً طبية كاملة مثل بردية (إيبرس) للعلاج الطبي بالعقاقير . وتتكون من ٨٧٧ وصفة طبية من بينها اثنتا عشرة وصفة فقط تشتمل على تعاويد سحرية .

وبردية (إدوين سميث) الجراحية كلها طيبة ما عدا وصفتين في
 ظهر البردية . وكان الكشف عن بردية إيبرس في مدينة طيبة عام ١٧٨٢ .
 عثر عليها جورج إيبرس وكان أستاذاً للآثار في ليزج وأهداها إلى
 متحفها كما أنه كتب قصصاً تصور الحياة في مصر الفراعنة نالت نجاحاً
 في أوروبا في ذلك الوقت .

بردية إيبرس :

وتبدأ بردية إيبرس التي كتبت عام ١٥٥٢ قبل الميلاد بأناشيد وتعاويد
 لتقوية مفعول العلاج الطبي . أولاً :
 « . . . وقال (رع) الإله الشمس . سوف أنقذه من أعدائه .
 ويقوده الإله (ثوث) يمنح المهارة للذي يكون معه . الذي تحبه الآلهة
 وتحفظه حياً » .

ودعاء يقرأ على عقاقير مكونة من : ابن امرأة ولدت طفلاً ذكراً ،
 والصمغ وشعر كبش ويستعمل علاجاً للحرقى . وبعد اثنتي عشرة وصفة
 تعالج بالرقى والأدوية والتعاويد ، تبدأ بوصف تشريحي لجسم الإنسان
 ووظيفة القلب والأوعية « بدء الكتاب السرى للأطباء معرفة حركة القلب .
 ومعرفة القلب . توجد أوعية من القلب إلى كل الأعضاء . إذا وضع
 طبيب أو جراح يده أو أصابعه على الرأس أو اليدين أو مكان المعدة
 أو الذراعين أو القدمين فإنه بذلك يفحص القلب . لأن الأوعية موجودة
 في كل من الأطراف . إنه القلب يتكلم في أوعية كل الأطراف . . . »
 ومن بين الأمراض التي يصفها ويذكر علاجها الأورام وتمزقات
 الأنسجة وأمراض الجلد والأطراف واللسان والأسنان والأنف والأذن
 والعينين وأمراض النساء والأطنال . ويذكر أكثر من سبعين وصفة

لعلاج الجلد والحروق والنمش والعناية بالشعر .
 وكان المصريون والمصريات يخبثون الشبخوخة فاستعملوا زيت الحلبة
 لإزالة تجعدات الوجه .

ووصفوا لعودة اللون الأسود للشعر زيتاً مخلوطة بدماء عجل أو ثور
 أسود أو دهن ثعبان أسود . ولمنع تساقط الشعر و « نمو الشعر في رأس
 الأصلع » مزيجاً من دهن الأسد والتمساح والقطعة والثعبان . أو علاجاً آخر
 عبارة عن أشواك قنفذ محروقة ومغمورة في الزيت . أو حبراً أحمر وأصابع
 الكلاب وحوافر الحمير وبلحاً ناضجاً . أو تدليك الرأس بالزيت
 والتربنتينا .

وما زالت حتى اليوم الأواني التي يضعون فيها أدهان الزينة والكحل
 وغيرها من أدوات الزينة موجودة بين آثارهم بكميات كبيرة . واستخدمت
 العطور لتعطير أجسام النساء وثيابهن وشعورهن . والحناء لصبغ راحة
 اليد والقدم . والمغرة الحمراء لطلاء الشفاه والحدود باللون الأحمر . واستعملن
 الكحل للحواجب والجوانب الخارجية للعين . وكن يضعن الكحل
 الأسود على الجزء العلوي من العين وهو من الجالينا (كبريتيد الرصاص)
 والكحل الأخضر من المالاخيت (كربونات النحاس الأخضر) على الجزء
 أسفل العين . ثم استعملن اللون الأسود لكل من الجزأين ومن المعتقد أن
 المراد من ذلك إظهار بريق العين وإبراز جمالها بل كان أيضاً لأغراض
 سحرية .

ومن العقاقير التي ذكرتها البردية وما زالت تستعمل زيت الخروع
 لعلاج الإمساك ودهاناً للشعر .

وللشفاء من الصداع تدق حبوب الخروع وتخلط بالماء ثم توضع
 على الرأس « سوف يزول الصداع كأن لم يكن » . والثوم والبصل وكزبرة
 البئر وبصل العنصل وهذا الأخير الاستسقاء . والرمان للديدان في

الأمعاء وضد الإسهال واللبخ والزعفران والجنطيانا والكرفس والشبث والكمون والينسون والشمر والقمرة وجذور العرقسوس يعدون منها دواء مليناً وشراباً مرطباً في الصيف وقد وجدت كمية منه في مقبرة توت عنخ آتون، والحميز والتين، ومن الحبوب القمح والشعير والذرة الرفيعة .

ويؤخذ الدواء كجرعات مسهلة هي مزيج من اللبن والعسل والحميرة .

أو تعمل حبوب من العرعر والحشخاش والبصل وعسل النحل .
ووصفة لجرعة يشربها المريض ضد الإمساك أيضاً « يؤخذ بلح طازج جزء واحد وبلح البحر جزء واحد . وعصير (السبت) جزء واحد .
تضعهم في الماء في إناء من الفخار . ضع فوقها قرون السنامكي بعد تكسيرها . ويطهى المزيج ثم يبرد . ويشربه المريض . دعه يشرب عقبه الجمعة الحارة » .

وعقاقير لإزالة الروائح الكريهة والتبخير والاستنشاق ومراهم من شمع وعسل وبنر كتان مدقوق وزيت وشحوم ودهون . . . وابتخات وأبوس شرجية وتلابيس مهبلية . وقطرات توضع في العين بواسطة ريشة طائر .

ولأمراض العين الملاحيت والإثمد والمغرة الصفراء .
واستعملوا مغلي الحشخاش لتهدئة الأطفال من الألم والمغص ونومهم .
وعالجوا النزلات المعوية بلبن الأم التي ولدت طفلاً ذكراً مع حبوب (سبت) وسيتان البردى .

ولعلاج الأسنان استعملوا الكندر (لبان دكر) والمغرة الصفراء مع العسل . ولثة المتقرحة القرقة والصمغ والزيت والعسل . أو الحميز والمغرة . الصفراء والعسل . ومضمضة للفم مكونة من لبن البقرة والبلح الطازج والمن يستمر لمدة تسعة أيام متتالية .

بردية إدوين سميث :

بردية إدوين سميث طولها ٦٨, ٤ أمتار وعرضها ٣٣ سنتيمتراً مكتوبة بالحبر الأسود والكلمات التي يراد إظهارها والملاحظات الهامة بالحبر الأحمر ، وتبدأ بأجزاء من (كتاب أوعية القلب) ثم ثمانية وأربعين حالة من جروح وكسور وأورام وقروح وكيفية علاجها . وفي الوجه الخلفي من البردية تعويذة سحرية لتحويل الرجل العجوز إلى شاب في العشرين . وأدعية لمنع الرياح الحاملة للأوبئة .

بردية هيرست :

محفوطة في جامعة كاليفورنيا . وهي مكتوبة أيضاً في فترة لا تبعد كثيراً عن بردتي إيبرس وسميث وبها عدد من الوصفات ذكر في بردية إيبرس إلى جانب وصفات سحرية والكأس السحرية لقياس الأدوية وتعاويد تتلى على الأدوية وماء الشعير والعسل والجمعة والدهون والزيوت . ووصفات لعلاج (الميتو) لتمهيتها . فإن ثورة (الميتو) تسبب الأمراض في اعتقادهم . ووصفات لنمو الشعر من عقاقير بينها بذر الخلة وحب العزيز والعنص وزيت الصنوبر والترينتينا .

بردية براين :

للأم والطفل ، بها تعاويد لتسهيل الولادة ومعرفة نوع المواليد ووقاية الأطفال من الأمراض والأرواح الشريرة .

برديتي كاهون :

أقدم برديتين عثر عليهما في كاهون بمحافظة الفيوم وهما في حالة ممزقة والكثير من كلماتهما اختفى . إحداهما لأمراض النساء والثانية للطب البيطري .

- ثم بردية لندن وأكثرها سحرى .
- وبردية جاردنر لأمراض الشرج .

حضارات أخرى قديمة

عاصرت حضارة بابل وآشور ومصر حضارات أخرى في بلاد العرب واليمن والحبشة ثم فارس والهند والصين واليابان وفي أمريكا الوسطى والجنوبية وغيرها .

وليس من اليسير معرفة أى هذه الحضارات كان أعرق في وسائل تطبيقها ومن الذى بدأ بتشخيص هذا المرض أو ذلك واستعمال العقاقير التى ظل البعض منها حتى يومنا هذا علاجاً شعبياً أو معترفاً به في الدساتير الطبية .

طب العرب في الجاهلية

كان العرب كثيرون الرحال بحثاً عن الماء والمرعى في صحراء شاسعة، يعيشون على ماشيتهم، يتغذون بلحومها وألبانها، ويتخذون من صوفها ثياباً يغازونها بأيديهم .

أما المناطق القريبة من شواطئ البحار فقد كان بها مدنيات ذكرها القرآن الكريم كمدينة سبأ وسد مأرب في بلاد اليمن التي كان يسكنها بنو قحطان . وفي الأراضي التي سميت فيما بعد بالحجاز شعب بنى عدنان . وكان هذان الشعبان على اتصال وثيق بما جاورهما من بلاد الساحل الإفريقي . ثم في آسيا بلاد النهرين وفارس والهند والصين . وساعد على ذلك موقعهم الجغرافي المتوسط . وكانت القوارب والسفن في البحر وقوافل الجمال في مسالك الصحراء سيبلهم إلى ذلك .

لم يصل إلينا من حياة عرب الجاهلية إلا النادر خلال ما تناقلته الأجيال من رواية شعرهم وذكر عرافيتهم وأطبائهم ووسائل العلاج بالسحر أو الشعوذة أو الطب بالعقاقير أو الحمية أو الفصد أو الحجامة أو الكي .

وكان من علومهم الكهانة وهي التنبؤ بالأحداث قبل وقوعها . ونسب ذلك إلى عزلتهم وصفاء نفوسهم ، فهي بذلك أقدر على الاطلاع على أسرار الطبيعة .

ثم الفراسة وقد انتشر هذا العلم منذ الجاهلية وبقى حتى إلى ما بعد الإسلام . وهناك قصص كثيرة تدل على مهارتهم الفائقة وذكائهم النظري .

والعزائم وهي التي تعرف الآن بالتنويم المغناطيسي وتحضير الأرواح
والسحر والطلاسم والتائم والتنجيم والنأل والطيرة .

ومن العلوم الهامة التي اشتغل بها العرب قديماً وكانوا يعتبرونها نوعاً
هاماً من الطب : العرافة .

اشتهروا بها وحازوا ثقة أهل زمانهم كرباح بن عجلة عراف اليمامة
الذي قال فيه الشاعر عروة ابن خزام :

جعلت لعراف اليمامة حكمه وعراف نجد إن هما شفياني
فقالا نعم نشفي من الداء كله وقاما مع العواد بيتدراني
فما تركا من حكمة يعلمانها ولا سلاوة إلا بها سقياني

وقوله أيضاً :

فقلت لعراف اليمامة داوني فإنك إن أبريتني لطيب

وكان العرب يستعينون بالعرافين لاكتشف عما يحبته المستقبل واستنتاج
الحوادث بتطبيقاتها على مثيلاتها في الماضي . . .

ولكنهم عرفوا الطب العلاجي التجريبي . وكان لهم أطباء بقيت
ذكرهم آلاف السنين . بل كانت منهم طبيبات ذاع اسم إحداهن وهي
زينب طيبة بنى أود . اختصت بأعراض العيون . وهي التي قال فيها
أبو السماك الأسدي كما جاء في كتاب الأغاني :

أفخترى ريب المنون ولم أزر طيب بنى أود على النأي زينبا

ومن أطباء الجاهلية الحارث بن كلدة الثقفي كان من الطائف وسافر
إلى بلاد فارس وتعلم فنون الطب وكان يتقن العزف على العود . وعاش
إلى ما بعد الإسلام . وله كتاب مشهور عن أحاديثه الطبية مع كسرى

أنو شروان ملك فارس عن الصحة والمرض والعلاج بالحمية والابتعاد عن التخمّة وعدم الاستحمام بعد الطعام أو التفكير في هموم الحياة أثناء التعام أو قبل النوم . والنصد والحجامة والعقاقير وأثرها
وكان ابنه النصر بن الحارث طبيباً ماهراً في فنه مثل أبيه .

وكذلك ابن حريم ، وابن أثال في دمشق ودميان وكوسم وسبى هذان الأخيران أبوى الطب والصيدلة في سوريا وكانا مسيحيين أقيمت لهما هناك كنيسة تذكارية .

ثم رشيد الدين أبو خليفة الطبيب الصيدلى وقضى معظم حياته في مصر وأدركه الإسلام ومن كتبه (المختار في الألف عقار) في الأدوية المفردة والمركبة .

بلاد الفرس

كان الكهنة هم الأطباء في بلاد فارس يتبعون قوانين (زرادشت) . مارسوا السحر والرقى لإخراج الشياطين معتقدين أنهم سبب تسعمائة وتسعين مرضاً تصيب الإنسان .

وبالرغم من ذلك فإن أهل فارس القدماء استعملوا لعلاجهم كثيراً من العقاقير الطبية كالأفيون والحلتيت وبعض الراتنجات العطرية وعقاقير أخرى تعافها النفس كان من بينها بول الإنسان .

الهند

دلت الآثار الباقية من حضارة الهند القديمة أن الطب وتشخيص المرض وطرق العلاج بالجراحة والعقاقير كانت متقدمة . وما زالت حتى اليوم طرق العلاج القديمة تمارس بين الهنود مما يدل على أنها ذات فائدة

محققة ونخالط الطب كثير من الكهانة . وكان لكل مرض إله خاص به كما أنهم آمنوا بأرواح الخير والشر . يقيمون الاحتفالات الدينية وينشدون الأناشيد لعلاج المرضى . ولقربهم من بلاد سومر وبابل والأكاديين والأشوريين فإنهم آمنوا بالكهانة . والتنبؤ بالمرض والتفاؤل والطيرة وتقمص الأرواح نجد الكثير منها في لوحات أكادية جاء فيها أيضاً ذكر الهندوملاوكها . وأهم مصدر لمعلوماتنا الطبية عن الهند كتاب (الفيداس) المكتوب باللغة السنسكريتية منذ أكثر من أربعة آلاف عام . وهو مجموعة من الرقى والتعاويذ للشفاء من الأمراض . ثم كتاب : (آيورفيداس) ومعناه (علم الحياة) ويصور حياة الطبيين (شاركا) و (سوسروتا) وطرق علاجهما والعقاقير والأعشاب التي كانا يصفانها . ويعرف بالتقريب أنهما عاشا في فترة تقع ما بين مائتي عام قبل الميلاد ومائتين بعده .

وقد قسم (سوسروتا) المادة الطبية إلى سبعة وثلاثين جزءاً تبعاً للأمراض ومن بين السبعمئة عقار من الأعشاب التي ذكرها الللاح والقتاء الهندي والصبر والكركم وزيت الخروع . . . ومن المعادن الشبه والزرنيخ والبورق وأملاح الرصاص والزنك . ومن العقاقير الحيوانية الزراريج ولحم الثعابين وعدد من الشحوم والدهون وإفرازات الحيوانات .

وفي الكتابات الدينية لأتباع بوذا المكتوبة أيضاً باللغة السنسكريتية أوصاف للأمراض وقصة بعض الذين كانوا يمارسون الطب وجمع العقاقير والأعشاب مثل (جيفاكا) الذي طلب أستاذه في العقاقير منه ومن زملائه أن يجمعوا له النباتات ذات الفائدة الطبية . واستطاع (جيفاكا) أن يجمع عدداً من النباتات يفوق زملاءه بكثير . ولما سأله أجابه عن خواصها الطبية، المعروفة حينذاك . وخواص أخرى لم يكن

يعرفها أستاذه .١

وقصة أحد ملوك الهند الذي كان يقاسى من آلام لم يعرف الأطباء سبباً لها أو ينجحوا في شفائه .

وعندما علم (جيفماكا) بذلك . وكان قد سمع بالأمس عن أحد المرضى مات بنفس العلة ، ذهب إلى القبر وفتح الجثة وأخذ يفتش في أحشائها حتى عثر على ديدان في أمعائه وأجرى عليها التجارب فوجد أن عصير الثوم يقضى عليها . فقام إلى الملك من توّه وأعدّ له جرعة من عصير الثوم قتلت ما في بطنه من ديدان وعوفي من مرضه .